منهج الحضارة الإنسانية ومستقبل المجتمع الإنساني في القرآن

بقلم د/ سليماني عبدالقادر

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار ، وتابعيهم ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

فإن من مقتضيات الإسلام، كدين سماوي، أنه رسم معالم **الحضارة الإنسانية**، من خلال القرآن الكريم والسنّة النبوية، رسما واضحا، من أجل تحقيق عمارة الأرض ، وتحقيق الحل الشامل لمشكلات الإنسان ، ويضمن له الأمن والطمأنينة، وذلك وفق منهج بيّن ، مردّه إلى **التربية** بكلّ أبعادها، واتجاهاتها، وذلك على المستويين : **الفردي**، ويتعلّق الأمر بالمجال الروحي والعقلي والبدني؛ وعلى المستوى **الجماعي**، ويتعلّق الأمر بالروابط والعلاقات بين الأفراد بعضهم ببعض ، وبين الجماعات التي يتكون منها المجتمع الكبير ، قال الله تعالى :﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وللتربية ، **أهمية كبرى لدى الأمم** ، في صناعة حضاراتها ، فعلى سبيل المثال لا الحصر :

1-أن ألمانيا لما انتصرت في الحرب السبعينية، قال أحد الألمان :" لقد انتصر معلم المدرسة " .

2-وعندما انهزمت فرنسا أمام ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ، قال أحد الفرنسيين :" إن التربية الفرنسية متخلّفة " .

3-وعندما سبق الروس الأمريكان في غزو الفضاء بإطلاق صاروخهم سبوتنيك الأول ، قال أحد الأمريكيين :" ماذا دهى نظامنا التربوي والتعليمي".

4-و عندما انتصر الصهاينة في حربهم مع العرب عام 1967م، علقت مجلة التايمز الأمريكية في عدد يوليو 1967م على ذلك ، تحت عنوان :" سقوط ثقافة وحضارة " ، " لقد سقطت الحضارة الإسلامية بانتصارنا على العرب" .

5- وأما بالنسبة للعرب ، فإنهم قد عاشوا قبل نعمة الإسلام ، قرونا عديدة ، جماعات متفرقة متعادية في صحاري و بوادي شبه الجزيرة العربية ، وبعض حواضرها و الحواضر القريبة منها ، و لم تكن لهم أية قيمة لدى الأمم المجاورة الكبرى من روم وفرس ، و لكن حالهم انقلب رأسا على عقب خلال عقدين من الزمان ، بسبب الرسالة و القيادة المحمدية ، حيث ربّاهم رسول الله ﷺ على التربية الإسلامية القائمة على التعاون و التكاتف و حسن الخلق و الحرية و الصدق و المساواة بين الناس ، ففهم أصحاب رسول الله ﷺ ، قوله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله و للرّسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ 13، أن الحياة الحقيقية لا تكمن إلا في الإستجابة لله و لرسولهﷺ .

وانطلاقا من هذه التربية ، انتشر الإسلام سريعا ، و عمّ معظم أنحاء الجزيرة، و وصلت دعوته القائمة على شمولية الدين و عموميته إلى فارس والروم ، وإلى قبط مصر وعرب الشام ، وذلك قبل وفاته ﷺ .

فالتربية ، إذن هي محور الحضارة الإنسانية ، ومردّها في واقع الأمر إلى **قضيتين أساسيتين :**

الأولى : **المعرفة** (connaissance) ، و الثانية : **الرغبة** (envie).

وبمقدار ما تكون المعرفة صحيحة والمنهج إليها سليما ، وبمقدار ما تكون الرغبة النفسية ملائمة ومتفقة مع مقتضيات تلك المعرفة الصحيحة ، تنشأ الحضارة في ذلك المناخ نشأة سليمة ، دون أن تعلق بها شوائب مشكلات أو يحرّفها أي عامل عن خط الإستقامة و الصلاح ؛ والقرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي يضمن انبثاق **الرغبة** الملائمة مع **المعرفة** الصحيحة .

والحضارة ، في الرؤية الإسلامية ، كلّ متكامل ، تلتحم فيه العناصر الروحية والمادية ، فلا يمكن الفصل بين الأسس الروحية ، من عادات وتقاليد، وعقائد ، وبين الوسائل العملية ، من تقنيات وقوانين علمية ، وفنون وآلات .

وأما بالمعنى الغربي ، فالثقافة ، عندهم تعني الأسس الروحية والتقاليد ، التي يقوم عليها المجتمع ، بينما تعني الحضارة حسب رأيهم الرقي العلمي والعقلي ، ونمو وسائل التأثير على الطبيعة ، وسيطرة الآلة .

وعلى هذا الأساس ، أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية ، وزعماء بعض الدول الغربية ، يقسّمون العالم ، إلى قسمين : العالم المتحضّر ، وينسبون أنفسهم إليه ، و العالم غير المتحضّر ، ويعنون به غيرهم من الأمم ، وفيه يصنّفون العالم العربي والإسلامي ؛ ويدّعون أن الدين الإسلامي هو مصدر كل الإضطرابات ، التي تتخبّط فيها الإنسانية .

والمقرّر والثّابت فى ديننا أنّ للإسلام نظرة مستقلة لمفهوم الحضارة ، تختلف عن غيرها اختلافا أساسيا ، وإن كانت فى الفروع والتّفصيلات قد تلتقى فى بعض الأحيان بغيرها من النّظريات ؛ ثم إن الإنسان هو محور مكوّنات هذا الكون .

ونظرة الإسلام فى تكاملها وتناسقها وشمولها لكلّ جوانب النّفس البشرية ، وكلّ جوانب الحياة ، غير مسبوقة من الوجهة التاريخية ، وما تزال حتى اليوم بعد كل ما ظهر من النظريات تنفرد وحدها بالشمول والعمق والإتزان [1] ؛ قال الله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ . [2]

وأهمّ ما يتميّز به الإسلام ، أنّه يأخذ الكائن البشرى على ما هو عليه تبعا لخصائصه الإنسانية ، وطبائعه وغرائزه ونزعاته وميوله ، صراحة وضمنا .

وأهم هذه الخصائص:

ا-أن الإنسان خلق من طين على شكل متميّز يدلّ على عظمة الخالق وكمال قدرته ، ويذكر الإنسان منذ بداية تكوينه بنعم الله تعالى عليه التي لا تحصى

ولا تعدّ ، والعلاقة الوثيقة التي تربط بينه وبين الطبيعة المحيطة به ؛ قال الله عزّ وجلّ:﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .(3)

ب-وأنّ كيانه قد جمع لعناصر وخصائص أساسية : الجسم والعقل والروح .

والإسلام يعترف بهذه الأبعاد الثلاثة للشخصية الإنسانية ، ويقدّر أهمّيّة كلّ واحد منها بالنّسبة لحياة الإنسان حياة سعيدة ، ويرى أن تلك الحياة والسّعادة لا تتمّان إلاّ بالتوافق والإنسجام والتعاون التام بين هذه العناصر الثلاثة ، التي تمثّل ، بحقّ ، بناء متكاملا ، لاصراع فيه بين الروح والمادة ، ولكن لقاء وتوازن .

وهذه الثمرة ، المتمثلة فى الإنسجام بين هذه العناصرالإساسية لكيان الإنسان، المطلوب أن تتجسد فى العلاقة الحيوية ، بين الفرد والمجتمع ، وبعبارة أدق بين الفرد والقبيلة والشعب والأمّة ، فى إطار الخصوصية ، أي الوحدة الإسلامية بكل أبعادها .(4)

وإذا كانت أزمة الفكر الغربى كلّه ، وأزمة الحضارة الآن التى تصدر عن الإنشطارية فى النظرة ، وإعلان شأن المادة و الجسد وحدها ، وإنكار الجانب الآخر كلّه ، بما يحويه من عواطف ومشاعر وروح وأشواق وجدانية نفيسة ؛ فإن النظرة الإسلامية الأصيلة إنما تردّ الأمور إلى إصولها تكاملا بين الروح والمادّة ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة .

قال الله تعالى :﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إنّ الله لايحبّ المفسدين﴾ .(5)

وجاء فى الحديث الذى رواه الإمام البخارى من طريق عون بن أبي جحيفة عن أبيه ، قال : آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ، ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعاما ، فقال: كل ، قال : فإني صائم ، قال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، قال : فأكل ، فلما كان الليل ، ذهب أبو الدرداء يقوم، قال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل ، قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال له سلمان : " إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبيﷺ ، فذكر ذلك له ، فقال النبي :" صدق سلمان".(6)

وعلماء الإسلام عندما يعترفون بوجود هذه الأبعاد الرئيسية للشخصية الإنسانية ، وهى الجسم والعقل والرّوح ، ويؤكّدون ضرورة اتّساقها وتعاونها وانسجامها ، وإرضاء مطالبها جميعا بدون إفراط ولاتفريط ، فإنهم يدركون الأهمّية البالغة لكلّ منها بالنسبة للحياة الإنسانية ، ويتصوّرون وظائف كلّ منها و الغايات الدّنيوية والأخروية الّتى يمكن أنّ يحقّقها كلّ منهم .

فينبغي التنبه لهذا الأمر والتركيز عليه ؛ لا سيما وأنه بدأ في المجتمعات الغربية توجُّهٌ نحو تكثيف الأبحاث في هذا المجال من جميع الجوانب [ماهية الإنسان وعواطفه وميوله الخ ...] في ظلّ أبحاث جديدة بديلة عن النّظرة المادّية التي أهملت الجانب الروحي.

ولا شك أن العولمة وماتحمله من معان ، هو اختيار " الأقوياء" ، وليس بوسع الضعفاء مراجعته ، فضلا عن الوقوف في وجهه ، فالشعوب الضعيفة تعيش الأحداث تتأثر بها ولا تصنعها ، عموما فإن رغبة الضعيف لا يعبأ بها القوي، كما أن إرادته لا تكون في مستوى تغيير أي شيء من الواقع في صالحه.

وعلى الأمة الإسلامية ، أفرادا و قبائل و شعوبا ، أن تعي وعيا تاما ، أنها أمة متميزة عن باقي الأمم ، بحضارة متميزة ، حضارة صنعها الدين الإسلامي الذي تدين به وتعتز بحمل رسالته ، وهو مصدر أساسي تستمد منه قوتها ، وإذا أضفنا إلى هذا الدين الحنيف مما تحضى به أمتنا: كالموقع الجغرافي والطاقة البشرية والثروات الطبيعية والرصيد التاريخي، نستطيع القول أن الأمة الإسلامية في وضعية تسمح لها باستيعاب العولمة، وتسخيرها في الإتجاه الذي يحقق أهدافها المشروعة .

ولا يمكن أن يتحقق هذا إلاّ في ظلّ **نظام تربوي** حقيقي، يستمد أصوله وأسسه من مقاصد الشريعة الإسلامية ، ويشمل جميع المجالات الحيوية التي تخصّ العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات ، فيكون بمثابة الحصن الحصين لهذه الأمة لمواجهة طوارئ المستقبل القريب والبعيد .

ولايختلف إثنان، في أن التربية تشكل محور النشاطات الفكرية، والأيديولوجية، ومفهومها يختلف من حيث مضمونها ومصادرها وخصائصها ومقاصدها باختلاف المجتمعات .

وفي العصر الحديث، عصر الثورة الإتصالية والمعلوماتية والأيديولوجية المتصارعة، صارت التربية هدفا ومحورا في آن واحد لعملية التنافس والصراع، من أجل بسط الهيمنة الشاملة على الشعوب، وفرض نظام معين، وقد استخدمت كافة الإمكانات المتاحة من نتاج الحضارة المادية الحديثة في محاولة نشر مفهوم معين للتربية ، وإعادة تشكيله في المجتمعات المستهدفة ، وكانت المجتمعات الإسلامية هي أكبر المجتمعات خضوعا لهذه المحاولات المستمرة . وعليه فالتربية، هي المفتاح الذي به يدخل المسلمون من حيث دخل أسلافهم، ونشروا ماضيهم الحضاري من جديد .

والمستقرئ لأطوار الحضارة الإنسانية ، يجد أن هذه الحضارة مرتبطة ارتباطا وثيقا، **بالمعرفة** أولا، **والرغبة** ثانيا؛ وبمقدار ما تكون المعرفة صحيحة والمنهج إليها سليما ، وبمقدار ما تكون الرغبة النفسية ملائمة ومتفقة مع مقتضيات تلك المعرفة الصحيحة ، تنشأ الحضارة في ذلك المناخ نشأة سليمة ، دون أن تعلق بها شوائب مشكلات، أو يحرّفها أي عامل عن خط الإستقامة والصلاح.

والحق، أن القرآن هو المصدر الوحيد الذي يخطط إلى المعرفة سبيلها ، ويرسم أمام الإنسان مناهجها ؛ بل هو المصدر الوحيد الذي يضمن انبثاق الرغبة الملائمة مع المعرفة الصحيحة .

وقد رسم الله عزّ وجلّ ، معالم الحضارة الإنسانية ، في القرآن الكريم ؛ ويتلخّص ذلك في أن السبيل القرآني إلى الحضارة الإنسانية لا يخرج عن كونه تبصيرا بالمنهج الأمثل إلى المعرفة : من أين يبدأ الإنسان سعيه إلى معرفة المكوّنات، وكيف يتعرّف على العناصر الأساسية للبنيان الحضاري، لاستخدامه على الوجه السليم .

فيكتشف الإنسان عندئذ شرط المعرفة وسبيلها ، ويصل بذلك إلى معرفة صحيحة لأركان الحضارة وعناصرها، المتمثّلة في الكون والإنسان والحياة .

وأما عن شرط المعرفة من حيث هي ، فإنها تتلخّص في أن يكتسبها الإنسان بتدرّج ومرحلية خاضعة للقاعدة القرآنية التي تقضي بضرورة الإنتقال من الكليات إلى الجزئيات ، ومن العموميات الشاملة إلى الخصوصيات الداخلة في قوامها .

ثم إن متعلق المعرفة مهما كثر وتنوّع ، لا يخرج عن كونه مندرجا في دائرة هذه المكوّنات ؛ ولا يستقيم معرفة أي جزء من هذا الوجود الكوني ، إلا ضمن قاعدة واسعة من البصيرة العلمية بالدائرة الكونية كلّها ، لأن الكون وحدة مترابطة المرافق والأجزاء ؛ و هذه الأجزاء بينها تمازج وتداخل ، بحيث لا يسمح لنا أن نحيط بأي منها إلا على ضوء ما قد يبصّرنا به المجموع الكلّي لذلك الكون .

وهذا العملية تؤدي بنا إلى أن نتسائل عن المصدر الذي يتضمّن بيان خارطة إجمالية لبنيان هذا الوجود كلّه ، بحيث يتبيّن الإنسان من خلالها مرافق هذا البنيان ويدرك صلة ما بينها وسبل الإستفادة الصحيحة منها .

والمقرّر في ديننا وشريعتنا ، أن المصدر الوحيد الذي يحوي هذه الخارطة، هو القرآن الكريم ؛ و هو خطاب الله تعالى ، خالق هذا الكون إلى عباده ، فهو المصدر الوحيد الذي يبصّر الإنسان بالهيئة التركيبية لهذه المكونات في نظرة شمولية عامة ، وتنبّهه إلى موقعه الذي يحتلّه من هذه الهيئة التركيبية كلّها.

وهذا يؤدّي بنا إلى أن محور هذا الكون إنما هو الإنسان ، وإن المهمة التي أنيطت به هي عمارة الأرض، و إقامة مجتمع إنساني عليها ، تشرق فيه الحرية والعدالة وتشيع في أنحائه الرحمة.

ولما كان الإنسان عاجزا عن إبداع موازين العدل السليم ، نظرا لما ركب فيه من صفات الأنانية وحب التسلّط والتملّك ، فقد أنجده الله عزّ وجلّ بمنهج لإقامة العدل ، ودلّه على سبيل استثارة أسباب المحبة والتراحم، ثم ألزمهم بذلك إلزاما، وسخّر لهم من أجل إقامة هذا المنهج كثيرا من المكونات، ثم شدّهم إلى تنفيذ هذه المهمة بعوامل الترغيب والترهيب، وكلّفهم أن يكونوا رقباء على بعضهم في رعاية العدل وإقامة سلطان التآلف والرحمة .

وعلى هذا الأساس يتمثّل الوجود الكوني كلّه، أمام بصيرة كل من أقبل إلى هداية القرآن وتأمل بنيانه وإرشاداته، ويزول الإضطراب عن النفس وتشيع في مكانه السكينة والطمأنينة.

وهذه العملية، ستؤدي حتما إلى الفهم الكلّي لحجم البنيان الكوني على النحو الذي يوضّحه القرآن، إلى الربط بين الجوانب والأجزاء التي تبدو أنها مستقلّة بعضها عن بعض؛ والواقع أن العناصر الكبرى التي يتألف منها هذا البنيان ، هو الإنسان، والعمر الذي يتمتع به ، والمكونات التي تطوف من حوله.

والإنسان هو محور كل هذه المكونات، فهو أهم العناصر الثلاثة التي تنبثق الحضارة من تآلفها وتفاعل ما بينها، إذ هو العنصر الفعّال، أما العنصران الآخران فمنفعلان ومتأثران.

فقد كرّمه تكريما بيّنا، فيبدأ خطابه إليه ، سواء من حيث النزول الزمني أو الترتيب الكتابي، بتعريفه على ذاته وتبصيره بهويته وتنبيهه إلى أصله وخصائصه، وهذا كلّه مجمل في قوله تعالى :﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .(7)

وهناك آيات أخرى بدأت بالحديث عن الإنسان، فقسمته إلى مؤمن وجاحد ومنافق، ثم خاطبت هؤلاء جميعا، فعرّفتهم على هويتهم الإنسانية، وقصّت عليهم نبأ نشأتهم فوق هذه الأرض .

وقد بصّر الله عزّ وجلّ الإنسان بحقيقته ومزاياه ، من خلال تنبيهه إلى حقيقتين اثنتين ، داخلتين في تركيبه الإنساني :

الحقيقة الأولى : أنه مخلوق تافه ، أصله الأول من تراب ، وسلالته من ماء مهين ، والشأن فيه إن طالت به الحياة أن يعود إلى أرذل العمر ، فلا يعلم بعد علم شيئا ؛ وهذه الحقيقة ماثلة في نحو هذه الآيات الآتية :

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ . (8)

﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ . (9)

﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴾ . (10)

﴿ قتل الإنسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ﴾ . (11)

أما الحقيقة الثانية : فهي أن الإنسان هو ذاك المخلوق المكرّم على سائر المخلوقات الأخرى ، وأنّه ذاك الذي استأهل أن يمر الله تعالى الملائكة بالسجود له ، متمثلا في شخص أبيه آدم عليه السلام ، وأنه الذي شرّفه بالخلافة فوق هذه الأرض ، وأنه الحيوان الوحيد الذي جهّزه الله بإشراقات العقل والتفكير ، وهذه الحقيقة تجدها ماثلة في نحو قوله تعالى :

﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ، ورزقناهم من الطيّبات ، وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ . (12)

﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس﴾ .[13]

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ .[14]

ولابد أن نتساءل الآن : كيف تآلفت هاتان الحقيقتان ضمن هوية واحدة للإنسان ؟ وما وجه تركيز القرآن على كل منها ؟

أما وجه تآلفهما ضمن الهوية الإنسانية الواحدة ، فوجه ذلك أن الإنسان مهما بلغت مرتبته من السمو ، ومهما اتصف به من المزايا النادرة ، فليس شيء من ذلك نابعا من ذاته ، ولا هو اكتسبه بجهده وطاقته ، وإنما جاءه كل ذلك فيضا من الله عز وجل ، لما شاء أن يختاره لعمارة هذه الأرض وأن يكلفه بتأليف أسرة إنسانية ، تقف متحابة متضامنة تحت سلطان العبودية لله عز وجل ، أما أصل تكوينه فمن تراب تافه ، ثم من ماء مهين ، ثم هو مخلوق عاجز في قبضة الله وحكمه .

قد أطبقت عليه أصار الذّل والعبودية لمن بيده خلقه وتدبيره ، إن لم يقر لسانه بذلك طوعا ، أذعن بذلك كيانه وواقعه قسرا .

وأما الحكمة من تركيز القرآن على كل من هاتين الحقيقتين المتقابلتين ، والإستمرار في تذكيره الإنسان بكل منهما ، فلأن رجل الحضارة الإنسانية (في حكم القرآن) هو ذاك الذى ربّى في ظلال التّنبه إلى هاتين الحقيقتين معا . ذلك لأن من عاش لا يتبصر من ذاته إلا مظاهر ضعفها ودلائل تفاهتها وهوانها، وقع لا جرم في براثن ضعف يجعله ضحية لطغيان الجبابرة والمتكبرين،

ويقعده عن القيام بأي مساهمة في عمارة الأرض وإقامة المجتمع الإنساني السليم.

ومن عاش وهو لا يعرف من ذاته إلا أنه الإنسان المكرم الذي يملك من المزايا ما يخوله أن يبسط لنفسه حكما وسلطانا على كل ما حوله ومن دونه ، وقع بلا شك في سكرة تلك الصفات التي ليست في حقيقتها إلا فيوضات من الله عز وجل، ثم جعل من نفسه حاكما من دون الله عز وجلّ ، يبسط قهره على سائر المستضعفين .

وتلك هي آفة الحضارات الجانحة التي نقرأ عنها في بطون التاريخ ، أو نرى بقاياها في جنبات الأرض .. وتلك هي قصة الفساد أو الإفساد التي يكرر القرآن الحديث عنها ، والتحذير منها .

فما فسدت الأرض يوما ما بعادية من عوادي الطبيعة ، ولا بسوء ألمّ بها من هياج حيوانات أووحوش ، وإنما استشرى فيها الفساد ، يوم تاه بنو الإنسان عن هوياتهم وواقع أحوالهم .

فتألّه الأقوياء ، وذلّ الضعفاء ، وخرج بذلك كل فريق عن حدود إنسانيته ، إما نحو التجبر والعلو ، وأما نحو الخنوع والهوان ، فتمزقت بذلك مما بينهم آصرة التعاون ، وهاجت فيهم عوامل البغضاء ، ثم انتشر بينهم وباء التهارج والقتل ، وتمت بذلك قصة الفساد في الأرض .

ومهما تطورت الدنيا ، واختلفت المدنيات والثقافات ، فالقصة تظل واحدة، تتكرر بتكرر العوامل والأسباب ذاتها .

ولا سبيل للوقاية من مغبتها إلا بأن يصطبغ الناس بالبصيرة القرآنية ، عندما يعرف الإنسان على ذاته وينبهه إلى مكان كلا هاتين الحقيقتين من كيانه .

ثانيا : ما هي الحياة الإنسانية في القرآن :

والحياة الإنسانية هي ما نعبر عنه عادة بالعمر ... ومن المعلوم أن أشد ما يتعلق به الإنسان من الدنيا إنما هو عمره .

وما يكدح الإنسان في سبيل رزق أو بناء دار أو التجمل بكساء أو التلذذ بطعام، إلا سعيا إلى رعاية هذه الحياة ، وتسببا لاستبقائها إلى أطول زمن ممكن.

وإنها لحكمة باهرة أن يطبع الله الإنسان على هذا التعلق بالحياة ؛ ذلك لأنها أقدس رأسمال يملكه الإنسان على الإطلاق ، إذ هي الوسيلة الزمنية التي لابد منها لاستخدام الأرض وعمارتها ، واستغلال ذخرها وخيراتها . فكانت الحكمة قاضية بأن تنطبع الغريزة الإنسانية في أصل كينونتها علي حب البقاء، غير أن الحياة ما دامت رأس مال أساسي للإنسان ، إذن لابد أن يتصرف الإنسان بها على هذا الأساس ، بأن يسخرها أداة لإنجاز المهمة التي أنيطت به.

وعندما يقبل الإنسان على تسخير حياته بهذا النحو، فلسوف يجد نفسه في مواقف تقتضيه أن يغامر برأس ماله هذا ويضحي به ، كما أنه يجد نفسه في حالات أخرى بحاجة إلى أن يزداد تمسكا به وحرصا عليه ، وذلك حسبما يقتضيه السعي إلى إنجاز المهمة الكبرى المنوطة به ، وإذا لم نتصور تعرض الحياة لكلا هاتين الحالتين ، فلا معنى إذن لليقين بكونها رأس مال بين يدى

الإنسان ، بل تكون الحياة عندئذ شيئا مقصودا لذاته ، وهذا ما لا يقرّه المنطق ولايقره المنهج القرآني بحال .

فمتى يجب على الإنسان أن يجازف بحياته ويغامر بها ، ومتى يجب أن يكون ضنينا بها ؟

لابد، للإجابة الدقيقة على هذا السؤال ، من معرفة دقيقة لحقيقة العمر أوالحياة التي يتمتع بها الإنسان من حيث مصدرها ومآلها ... فمن لم يتح له أن ينال هذه المعرفة بميزان علمي سليم ، لن يتمكن من اتخاذ المواقف المناسبة ، عندما يتعارض بعض المهام الإنسانية مع بعض الشروط الأساسية لبقاء الحياة، أو ضمانة بقائها على الأقل .

لذا ينتقل بنا البيان الإلهي من تعريف الإنسان على ذاته ، إلى تعريفه على حقيقة العمر الذى يتمتع به ، من حيث المبدأ والمنتهى ، ومن حيث الأحداث التي تنتظره من بعد هذه الحياة ، ومن حيث علاقة العمر بتلك الأحداث المقبلة عليه .

فما هي الحياة الإنسانية في تعريف القرآن الكريم و تحليله ؟

سنجد أن القرآن يتخذ في تعريف الحياة ، الموقف ذاته الذي رأيناه في تعريف الإنسان وتحليل حقيقته ، وذلك من حيث لفت نظر الإنسان إلى طرفين متقابلين ضمن ذاته وكيانه .

فلنصغ إلى القرآن في بعض آياته ، وهو يعرفنا بأحد الطرفين من حقيقة الحياة.

﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ . (15)

﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾. (16)

﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾ . (17)

إننا نرى أن التقرير الذي تتلاقى عليه الآيات ، عن قيمة الحياة الانسانية وحقيقتها ، يتلخص فى أنها ليست إلامعبرا إلى الحياة ، وأن الإنسان إنما يأخذ من هذه الحياة إلى تلك ، حصيلة كسبة وعمله.

وهي فى تقرير هذه الآيات حياة قصيرة تقوم بين موتين ، ثم تليها الحياة الدائمة التى لا انقضاء لها ، وهى بكل ما تموج به اليوم من أحداث ويتعالى فيها من ضجيج ، ليست سوى مقدمة في فصول قصة هذا الوجود الإنسانى ، أو هى أول فصل قصير فيها.

ولو أن القرآن قصر حديثه عن الحياة الإنسانية على بيان هذا الجانب وحده منها ، إذن لكان حريا بالإنسان أن لا يقيم لحياته وزنا ، وأن يهون

أمرها فى نظره ، سواء من حيث الرعاية لها أو العدوان عليها والتفريط فيها...

وإذن لما حرك الإنسان لحمايتها ساكنا ، ولأغنته سكنى الكهوف عن تعمير البيوت واتخاذ القصور ، فضلا عن أن يهتم بإقامة حضارة أو إشادة مجتمع.

ولكن القرآن لم يقتصر فى التعريف بالحياة الإنسانية على هذا الجانب وحده ، بل سرعان ما لفت النظر إلى جانب آخر من حقيقتها ، ودعانا إلى فهمها فهما متكاملا ، جامعا بين تصور دقيق لكلا جانبيها.

وهو فى تبصيره لهذا الجانب الآخر منها يكشف عن قداسة بالغة لها ، ويدفع الإنسان إلى سبيل رعايتها وحمايتها ، وينهضه إلى حراستها بوسائل شتى، فلنصغ إلى طائفة من الآيات القرآنية التى تشرح من حقيقتها هذا الجانب الثاني .

﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ . (18)

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾. (19)

﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة .... ﴾ . (20)

﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾ . (21)

والحقيقة أن كلا هذين الجانبين من حقيقة الحياة الإنسانية يقوم بمثابة الروح التي تبعث الحياة في الجانب الآخر ، فكل منهما إذا انفصل عن الثاني يغدو باطلا من الأمر ، وخارجا عن معنى الحياة وحقيقتها .

إن الحياة في حكم القرآن وقراره دهليز إل مقر ، وممر إلى وطن لاتحول عنه، والدهليز يجب أن يفهم على أنه دهليز ، أي شطبه عن الإعتبار حمق وغباء، والركون إليه ذهول واغترار .

ولقد استطاع رجل الحضارة القرآنية، بحكم تفهمه للحياة على هذا الأساس القرآني، أن يتمسك بمقياس في غاية الدقة، يعلم بموجبه متى ينبغي أن يكون ضنينا بالحياة محافظا عليها، ومتى يجب أن يتحول فيصبح سخيا بها، بعيدا عن رعوناته النفسية وأهوائه الغريزية.

القرآن والمستقبل الإنساني :

بعد هذا فلنعرف تصور القرآن عن المستقبل الإنساني ، عبر قراءة الآيات الشريفة التي تشير إلى هذالمستقبل ومنها ما يلي :

قال الله تعالى :﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .(22)

وقوله تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ . (23)

والآية وإن كانت تتحدث عن حادثة تاريخية لكنها بملاحظة قرينة لحينها والروايات الواردة فيها تعطى حقيقة عامة.

وقوله تعالى : ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . (24)

وآيات انتصار الدين على غيره ، وهي توحي بشيء من الصورة المستقبلية للقرآن بالإضافة لتصديقها لبيان هدف الرسالة .

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ . (25) وكذلك: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ . (26)

ومنها الآية الشريفة: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ . (27)

ومن خلال آيات أخرى ترتبط بهذا المجال نعرف أن الصورة المستقبلية القرآنية للبشرية يمكن تلخيصها بما يلي:

قيام الخلافة العالمية الواحدة التي يقودها المؤمنون الذين مكّن الله لهم دينهم في الأرض ، وانتشرت راياته على ربوعها ، والذين ينطلقون في بناء المجتمع العابد الموحد الذي لا يلوثه شرك أو كفر أو طاغوت أو خوف من ذلك ، المجتمع الذي يسوده عدل الإسلام وتغمره بركات الله تعالى ، المجتمع الفطري السائر في سبيله الطبيعي الكادح إلى ربه كدحا عبر قيمومة الدين وهداية الوحي .

فالأرض كلها حكم واحد يقوده الصالحون ، الدين فيه هو القيم والفطرة فيه هي المتجلية ، والمعايير هي معاير الدين والفطرة ، والعبادة لله هي أجلى مظاهر الفطرة، والتنافس في السير إلى الله تعالى يدفع الركب حثيثا نحو مراقي الكمال ، ومن الطبيعي بعد هذا أن يكون الرخاء المادي في أقصاه لأن سبب المشكلة الإقتصادية في تصور القرآن هو الظلم فى التوزيع ، وكفران النعمة فى الإنتاج، وإذ ينتفيان تنهل نعم الله .

يقول الله تعالى : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ . (28)

هذه خلاصة الصورة التي يقدّمها القرآن عن المستقبل العام ، ثم يعمل إلى تركيزها في الصورة بأساليب مختلفة.

أساليب القرآن في تأكيد هذه الصورة المستقبلية:

والواقع أن هذه الأساليب ليست كثيرة ، وينبغي أن ندرك مغزاها بعد

أن نأخذ بعين الإعتبار ما قلناه من الجوانب الإجمالية للصورة المستقبلية الآنفة ، ومنها:

أولا: التركيز القرآني على لزوم أن تؤتي المسيرة الإنسانية ثمارها ، وإنها لم تخلق عبثا وباطلا ، وإن هدف الخلق لا بد متحقق ، وهو العبادة والعبودية الشاملة —وهي ناظرة إلى الدنيا قبل الآخرة - وأن الأصلح هو الباقي في الأرض .

يقول الله تعالى :﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ، وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾ . (29)

والظاهر أنها تتحدث عن فناء الباطل في هذه الدنيا فتذكر إحدى السنن التاريخية ، وكيف أن الإنحراف يؤول إلى الفناء في النهاية ، وأن الهدف الإلهي سيتحقق في الأرض .

وهناك آيات أخرى تؤكد هذا المعنى منها قوله تعالى :

﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ . (30)

ثانيا : التأكيد القرآني على إعطاء المجتمع الإنساني والأمم حياة، لها كل خصائص الحياة الإنسانية، فلها أجل وكتاب ونمو واضمحلال، ولها سنن تسلك بها إلى التكامل، وعلى أن الفطرة، وهي العامل المشترك بين أفراد الإنسان ، وبالتالي العامل الذي يترك أكبر الأثر في المسيرة ، والذي لا يحذف بتاتا من حياة الإنسان-رغم محاولات تشويهه وإخفائه- ، قال تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ . (31)

كل ذلك بشكل لا يفقد معه الإنسان إرادته كما يفقدها أمام القوانين الطبيعية ، وإنما تشكل هذه السنن أرضية مساعدة لاتجاه الإرادة الإنسانية نحو صنع المستقبل الأفضل أو فلنعبر بأن الإرادة الإنسانية تحفز نحو تحقيق موضوع القانون التاريخي الذي يصنع الأفضل ، ﴿ ذلك بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (32) ، فبإرادة الناس يبدأ التغيير المطلوب.

ثالثا : يؤكد القرآن الكريم أن الكون بني على الحق والعدل والهدفية الدقيقة ، وإن أية حركة باتجاه الحق والعدل ستحظى بمعونة تكوينية-قد لا نعلم نحن بمدى تأثيرها- ولكنها على أى حال حقيقة قرآنية كاملة:

فالكون كله يسبح لله ، فإذا سبح الإنسان ، فقد انسجم معه .

والكون يقوم على ميزان عادل ، فينبغي للإنسان أن لا يطغى في الميزان لينسجم مع الكون ، وهكذا يوالي القرآن في آيات متفرقة تأكيد حقيقة الإنسجام حتى ليشعر المسلم بأنه إذ يكبّر يسمع تكبير الكون معه .

ومن هذا الباب الآيات التي تربط بين الأمور المعنوية والظواهر المادية ، قال تعالى :﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ . (33)

وكذا القانون الذي ذكره الله تعالى للميسرة الإنسانية عند بدئها: ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾. (34)

ومن الواضح أن هذا الربط ، يعني أن المنتصر في الأرض هو العدل والحق في النهاية، كما يمكننا أن نعد من ذلك كل الآيات التي تؤكد حب الله للمحسنين ، والتوابين ، والمتطهرين ، والمتقين ، والصابرين ، والمتوكلين ، والمقسطين ، والذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وغيرهم .

وذلك إذا لاحظنا أن الحب هنا لا يمتلك بعدا عاطفيا بقدر ما يعبر عن فيض إلهي ورحمة بهؤلاء ، وهي تنعكس في الدنيا نصرا على أعدائهم وتحكيما لدعوتهم بلا ريب، وفي الآخرة جنة وحريرا .

كما أن القرآن الكريم يؤكد على عنصر الإمداد الغيبي للرعيل المؤمن العامل في سبيل الله ، وهذا ما نلاحظه في كثير من الآيات الكريمة ، ومنها قوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ . (35)

وأيضا :﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ . (36)

﴿ بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ (37)

رابعا : تأكيد القرآن الكريم على أن الأنظمة الوضعية البشرية صائرة إلى الفشل حتما، وأنها مهما بدت عميقة الجذور فإنها سنتتهي إلى الفناء حتما.

ذلك أنها – في تصور القرآن – غير منسجمة مع المسيرة الكونية من جهة ، وتحمل في وجودها عناصر فنائها باعتبار أن التماسك الحقيقي ، داخل أي نظام ، لا يمكن أن يتم إلا عبر عقيدة واقعية حية لا غير ، أما التماسك الوطني والقومي والمصلحي والجنسي والعقائدي المادي ، فما هو إلا عامل وقتي لا يمتلك إلا جذورا عاطفية أووهمية لبس لبوسا الواقع ، وسرعان ما تكشف الفطرة خداعه وزيفه، ومن جهة ثالثة فإن الولاء العقائدي الحقيقي هو الذي يضمن لوحده وحدة الهدف حقيقة وينفي تعدد الولاءات أو ما يعبر عنه بالشرك في الولاء ف : " لا إله إلا الله " ، ولا مقياس إلا رضاه ، وهذا ما تفقده الأنظمة الوضعية بكل وضوح ، قال تعالى:﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾. (38)

﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ . (39)

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ . (40)

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ . (41)

وفي سياق استعجال الناس أيام الرسول للعذاب الذي أصاب المكذبين من قبل، يقول الله تعالى :

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ ، والآية كما يستظهر منها ناظرة إلى عذاب الدنيا والهلاك الحضري فيها .

هذا وهناك أساليب أخرى يسلكها القرآن لتأكيد المسلم بالنصر النهائي، وذلك بملاحظة الإخبار الإلهي الحق بأن النتيجة الحتمية لتطبيق الإسلام بكل عناصره في أي مجتمع ، هي دفعه للأمام وجعله الأعلى في الأرض ، وضمان انتصاره على باقي النظم، فإذا انضم إلى هذا إيمان المسلم بلزوم تحقق مشيئته البالغة ، بعد هذا لا يبقى مجال للتشكيك في إيمان الفرد والمجتمع المسلم بضرورة حصول الصورة القرآنية المستقبلية .

ولكن يبقى في علمه حقيقة أن تجسد هذه الصورة يحتاج إلى تهيئة واستعداد ومقدمات ، ولا يتم إلا عبر جهود مضنية تغير بها الأمة ما بأنفسها ليغير الله ما بها، ويتحقق الأمل الكبير واليوم الموعود .

وسائل تحقيق الصورة القرآنية عن المستقبل الإنساني :

بعد أن عرفنا وسائل التركيز القرآني للصورة المستقبلية ينبغي أن نستعرض ، بإجمال شديد ، الوسائل التي يسلكها القرآن للتحريض والتحريك نحو تجسيد هذه الصورة ، وتحقيق مقدماتها الضرورية ، وذلك على النحو التالي:

أولا : يعمل القرآن ،كما رأينا قبل قليل، على تركيز هذه الصورة في الأذهان وتوضيحها، ونفس هذا التركيز أسلوب مقدمي للتحقيق، فالتاريخ هو الحقل الذي يؤتر فيه التنبؤ العلمي في تحقيق النتائج، كما مكنا من قبل.

ثانيا : يطلب القرآن الكريم إلى الطليعة الإنسانية، ومن ثم الجميع أن يعملوا على تحقيق التغير الداخلي، وتنفيذ عملية الجهاد النفسي الأكبر، بالتأمل في أبعاد النفس ومعرفة عناصرها وميولها وكواشفها الفطرية، وتقوية جانبها المسيطر على مجمل التحرك، وهو جانب الفكر والإرادية ، وبالتالي تجلية الكل الفطري ، وإطلاق الصرخة الوجدانية ، وبتالي إيجاد الإستعداد التام لتقبل المدد الإلهي، وتحقيق موضوع الوعود الالهية بالنصر، ونعني به الصبر والتقوى، وإنزال الإسلام إلى واقع التطبيق.

وإذا كان تعبير الجهاد الأكبر ينصرف إلى تطهير الفرد نفسه، فإنه يمكن أن يأتي بنفس المستوى على صعيد الأمة نفسها، إذ عليها أن ترجع إلى نفسها

لتعرف مكنوناتها وتدرك نقاط ضعفها وقوتها ، ومن ثم تعمل على استرجاع خصائصها التي أرادها الإسلام لها .

الهوامش

1-محمد قطب ، الإنسان بين المادة والإسلام ، ص: 80 ، ط: 4 ، 1965، دار إحياء الكتب العلمية .

2 - الذاريات / 21.

3-المؤمنون / 14 .

4-الوحدة الإسلامية ، مقتطفات من كليات رسائل النور ، لبديع الزمان النورسي ، ص: 17.

5-القصص / 77.

6-صحيح البخاري ، (ح:1867، 694/2) .

7-العلق / 1-5.

8 -الطارق / 6 .

9-النحل / 4 .

10-الكهف / 37 .

11-عبس/19.

12-الإسراء / 70 .

13-البقرة / 34 .

14-البقرة / 30 .

15-الحديد / 20 .

16-العنكبوت / 64.

17-النساء / 77.

18-النحل / 77 .

19-المائدة / 32 .

20-البقرة / 195 .

21-النساء / 93 .
22-النور / 55 .
23-القصص / 5-6 .
24-الأعراف / 128 .
25-التوبة / 33 ، الصف / 9 .
26-الفتح / 28.
27- الروم / 30.
28- إبراهيم ، 34 .
29-الأنبياء / 15-19.
30-الرعد / 17 .
31-الروم / 30.
32-الرعد / 11 .
33-الأعراف / 96 .
34-طه / 124 .
35-العنكبوت / 69 .
36-غافر / 51 .
37- آل عمران / 165.
38-يونس / 66 .
39-الزمر / 29 .
40-النور / 39 .
41-العنكبوت / 41 .